عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ ﷺ، أن النبيَّ ﷺ قال:

١ «لتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَن قَبْلَكم شِبرًا بشِبرٍ، وذراعًا بذراعٍ،

٢ حتى لو سَلَكوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلكْتموه»،

٣ قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «فمَن؟!»[٢٦١].

(٢٦١) رواه البخاريُّ (٣٤٥٦)، ومسلم (٢٦٦٩).

آيات

﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٦-٧].

﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

الراوي

هو: أبو سعيدٍ، سعدُ بنُ مالكِ بنِ سِنَانٍ الأنصاريُّ الخزرجيُّ المُدنيُّ، شَهِدَ مع النبي ﷺ غزوة الخَنْدق وما بعدها من الغزوات، فغزا مع رسول الله ﷺ اثنتَي عشرةَ غزوةً، وشهِد بيعةَ الرضوان، وكان من الحُفاظ المكثرين الرواية عن النبي ﷺ، وكان من العلماء الفضلاء العقلاء، وأفتى مدَّةً، ومات سنة ٧٤هـ[١].

خلاصة

يُخبِر النبيُّ ﷺ أنَّ أُمَّته ستُقَلِّدُ الأمم السابقة من اليهود والنصارى في الابتداع في الدين وارتكاب المعاصي تقليدًا تامًّا وموافقةً عمياء.

(١) انظر: «تذكرة الحفاظ» للذهبيِّ (١/ ٣٦)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر (٣/ ٨٥)، «البداية والنهاية» لابن كثير (٩/ ٣، ٤)، «الطبقات الكبير» للزهريِّ (٥/ ٣٥٠).

١ أخبَرَ النبيُّ ﷺ أنَّ أُمَّته ستَتَّبع **طريق الأمم السابقة وطريقتها** في الابتداع في الدين وارتكاب المعاصي اتباعًا تامًّا وتقليدًا أعمى، وقد حصل ذلك بعده ﷺ، فمال كثير من الناس إلى الحِيَل، وإلى أكْل الربا، والتشبُّه بهم في ملابسهم وشعارهم، وإقامة الحدود على الضعفاء دون الأغنياء، وغير ذلك، ومال بعضهم إلى عبادة الصالحين من دون الله تعالى(٢٦٢).

وإخبارُ النبيِّ ﷺ بذلك ليس إقرارًا منه، بل إنَّه ﷺ حذَّر من اتباعهم وأمر في غير حديثٍ بمخالفتهم(٢٦٣).

وقوله: «شبرًا بشبرٍ وذراعًا بذراع» تشبيهٌ يُقَوِّي المعنى؛ حيث إنَّ من أمته ﷺ من يُقلِّد الكفارَ في كل شيءٍ، وقد قال ﷺ: «ليأتينَّ على أُمتي ما أتى على بني إسرائيل حَذْوَ النَّعل بالنعل، حتى إن كان منهم مَن أَتَى أُمَّه علانيةً، لكان في أُمتي مَن يصنع ذلك»(٢٦٤).

والمراد من ذلك بيان شِدَّة موافقتهم في المعاصي والمخالَفات، لا في الشرك والكفر بالله(٢٦٥).

(٢٦٢) انظر: «فيض القدير» للمناوي (٥/ ٢٦١)، «تحفة الأحوذي» للمباركفوري (٦/ ٣٤٠).

(٢٦٣) انظر: «شرح رياض الصالحين» لابن عثيمين (٣/ ٤٩٤).

(٢٦٤) رواه الترمذي (٢٦٤١).

(٢٦٥) انظر: «عمدة القاري شرح صحيح البخاري» لبدر الدين العينيِّ (١٦/ ٤٣)، «إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري» للقسطلانيِّ (٥/ ٤٢١).

٢ ثُمَّ شبَّه النبيُّ ﷺ ذلك التقليد والاتباع بالأمم السابقة بأنه لوْ دخَل أحدُهم جُحْر الضَّبِّ - **وهو حيوانٌ معروفٌ يُشبه الوَرَل**[٢٦٦] - لاتَّبعه كثيرٌ من المسلمين. وإنَّما اختار جُحرَ الضَّبِّ لضِيقِه وخُبثِ رائحته، يريد أنَّهم لو دخلوا مكانًا ضيِّقًا مؤذيًا خبيث الرائحة لاتَّبعتُموه، وذلك حاصلٌ في اتباعهم في المعاصي والخبائث والفواحش التي يأنفُ منها الطَّبْعُ السَّليم[٢٦٧].

٣ فتَساءل الصحابةُ: أتقصدُ اليهودَ والنصارى يا رسولَ الله؟ وهو استفهامٌ يفيد التعجُّب والاستنكار؛ استَعظَم الصحابةُ أن يُقلِّدَ بعضُ هذه الأُمَّة اليهودَ والنصارى على ما هم عليه من الضَّلال، وبعدما مَنَّ اللهُ علينا بالهدى والتوحيد. فأجاب ﷺ بالإثبات؛ إذ لو لم يكُونوا اليهودَ والنصارى فمَن غيرهم.

وهذا الإخبارُ منه ﷺ ليس على ظاهرِه؛ بل هو عامٌّ مخصوصٌ؛ فإنه ليس كلُّ المسلمين يتَّبِعون مَن كان قبلَهم، ففيهم المتمسِّكون، والعلماءُ، وأهل الدِّين والتقوى؛ وإنما المراد: يكون فيكم اتِّباع لِمَن كان قبلَكم[٢٦٨].

(٢٦٦) انظر: «حياة الحيوان الكبرى» للدميريِّ (٢/ ١٠٧).

(٢٦٧) انظر: «عمدة القاري شرح صحيح البخاري» لبدر الدين العينيِّ (١٦/ ٤٤)، «إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري» للقسطلاني (٥/ ٤٢٢).

(٢٦٨) انظر: «القول المفيد على كتاب التوحيد» (١/ ٤٦٤).

١ استخدم النبيُّ ﷺ التشبيهات والصور البيانية التي تُقرِّب المعاني وتؤكِّدها بألطف أسلوب. فينبغي على الدُّعاة والعلماء استعمال تلك الصُّور البديعة التي تأسر العقول وتخطف القلوب.

٢ تَرَفَّع النبيُّ ﷺ عن ذكر أسماء الكفار والفُسَّاق، واكتفى بالإشارة إليهم بقوله: «مَن كان قبلكم»، فيُستحَب عدم ذكر أسمائهم إلا لحاجةٍ؛ كأن يُذكَر من قصصهم وأخبارهم ما يتَّعظ به السامع.

٣ أفاد الحديثُ أنَّه يجب على الإنسانِ أن يَحذَر مِن اتباع غير المسلمين فيما اختُصُّوا به من شؤون حياتهم من مأكل ومَلْبَس ونحو ذلك، فضلًا عن العبادات والطقوس والعادات الدينية، بل يخالفهم ما استطاع.

٤ هذا الحديث من دلائل نبوته ﷺ؛ فقد وقع ذلك بين المسلمين باتِّباع الكافرين في أمور دينهم ودُنياهم. وهذا مما يزيدنا إيمانًا باللهِ جل وعلا وبرسوله ﷺ.

٥ لقد حذَّر النبيُّ ﷺ من اتِّباع سَنَن من قبلنا، وفي التحذير من التقليد واتباع السَّنن تكثيرٌ للطائفة الظاهرة المنصورة، وتثبيتٌ لها، وتقويةٌ لإيمانها؛ ففي أيِّ الطائفتين تريد أن تكون؟!

٦ في الحديث إشارةٌ إلى بلاء التقليد، وسوء مغبَّته، وكم جرَّ التقليد على المسلمين من بلاءات ووَيْلات وَنَكَبات، وضياع هُوِيَّة الأجيال، وذَوَبانهم في هُوِيَّات الضلال والانحلال!

٧ دلَّ تشبيه الاتِّباع بدخول جُحر الضبِّ أنَّ مِن أفعالهم ما تُنكره الفِطرة ويأباه العقلُ، ومع ذلك يُقلِّدهم أُناس من المسلمين. فالحمدُ لله على نعمة العقل والإيمان.

٨ لقد دلَّ الكتاب والسُّنَّة على أنه لا يزال في هذه الأمة طائفة متمسِّكة بالحقِّ إلى قيام الساعة[٢٦٩]، وأنَّ الله لا يزال يَغرِس في هذا الدين غَرْسًا يستعملهم فيه بطاعته[٢٧٠]، وأنهم لا يجتمعون على ضَلالة[٢٧١]، فينبغي للمسلم أن يحرص أن يكون منهم.

---

(٢٦٩) رواه مسلم (٤٩٨٨): عَنْ ثَوْبَانَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَذَلِكَ».

(٢٧٠) روى أحمد (١٧٧٨٧)، والبخاريُّ في «التاريخ الكبير» (٩/ ٦١)، وحسَّنه الألبانيُّ في صحيح الجامع (٧٦٩٢): عن أبي عِنَبَةَ الخَوْلانِّي قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «لا يزال الله يغرس في هذا الدِّينِ غَرْسًا يَسْتَعْمِلُهُمْ فِيهِ بِطَاعَتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

(٢٧١) روى أحمد في «المسند» (٢٧٢٢٤)، والترمذيُّ (٢١٦٧)، وصحَّحه الألبانيُّ دون «ومن شذ»: عن ابن عمرَ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله لا يجمع أمتي – أو قال: أمة محمد ﷺ – على ضلالة، ويد الله مع الجماعة، ومن شذَّ شذَّ إلى النار».

٩ استنكر الصحابةُ رضوان الله عليهم من تقليد اليهود والنصارى واتِّباعهم، وقد اتضح الدليلُ على ضلالِهم وغيِّهم. فلا شكَّ أنَّ المُقَلِّدَ لهم أجهلُ منهم وأضل؛ لأنه اتبع أهل الضلال والغواية، بعدما تبين له الحقُّ والهداية.

قال الشاعر:

وَمَـنْ يَبْتَـغِ الْإِسْـلَامَ دِينًـا يَكُـنْ لَـهُ نَصِيـبٌ مِـنَ الدَّارَيْـنِ يَبْقَـى وَلَا يَفْنَـى
وَمَـنْ يَبْتَـغِ الدُّنْيَـا مَصِـيرَ مَآلِـهِ فَقَـدْ خَـسِرَتْ يُمْنَـاهُ إِنْ طَفَّـفَ الْوَزْنَـا
لَنَـا قِبْلَـةٌ نُحْيِـي ذُرَاهَـا وَنَتَّقِـي حِمَاهَـا وَنَهْوَى دُونَهَا الـضَّرْبَ وَالطَّعْنَا